القسم الثاني

التصوف الإسلامي

تطوره، ملامحه، أبرز الأفكار والحقائق

النفس والوجود

obeikandl.com

obeikandl.com

التصور والخطة لهذه الدراسة

بعد أن فرغنا من الزهد الإسلامي وما يتعلق به ننتقل إِلَى الطور الثاني من أطوار الحياة الروحية فِي الإسلام الَّذي عرف باسم التصوف وأطلق على رجاله اسم الصوفية، وقد طبعت هذه الحياة بخصائص وبرزت فيها أفكار، واستخدمت لها لغة لم تكن عند الزهاد بمثل ما كانت عليه عند الصوفية، ولذا كانت مثارًا للجدل والنقاش بين المؤيدين والمعارضين.

وبادئ ذي بدء يَجب علينا أن نضع فِي اعتبارنا أن الدارس لما عليه الصوفية، وَالَّذي يرتاد مجالسهم وخلواتهم بقصد الاستفادة السلوكية، أو بقصد الدراسة المجردة لا بد وأن يتلمس بابًا صحيحًا وأن يدخل عليهم برفق وأدب وبيقظة ووعي كاملين، وأن يتسلح بسلاح العلم الإسلامي والسعة فيه، وأن يكون متهيبًا عند كل خطوة يخطوها حَتَّى لا تزل قدماه أو يضل فكره، سواء كَانَ هذا التهيب نابعًا من الأدب اللائق بالصادقين من رجال الطريق، أو كَانَ مقصودًا من وراء خطة موضوعة لدراسة مظاهر القوم وحقائقهم وأذواقهم تلكم الموضوعات الَّتي يفسدها التجرؤ عليها، ويقلل سوء الأدب من درجة الوقوف على أسرارها.

وبجانب هذا فإننا لا نستطيع أن نغوص فِي أعماقهم ابتداء بل علينا أن نتبع فِي ذَلكَ نفس الآداب المرعية فِي ديارهم، فكما أن الطالب للحرقة لا يقذف نفسه بين صفوف المريدين فجأة، ولا يمد يده إِلَى الشيخ من أول وهلة، ولا يطلعه الأستاذ على بعض الأسرار بمجرد وصوله، ولكن يمر بمرحلة الخدمة الَّتي يلزم فيها الباب ثم الصحبة ثم الإرادة، فكذلك الدارس لا يجوز له أن يقتحم الحقائق حَتَّى يبدأ أولاً من باب الرسوم.

والطالب أو الباحث أشبه بالغواص الَّذي يتحتم عليه أن يتخير مكان النزول إِلَى الخضم وهو ما زال واقفًا على الشاطئ، ثم بعد ذَلكَ يشق سطح العباب إِلَى

العمق، ومستحيل أن يعرف القاع قبل أن يَمر على اللجة الظاهرة، ومن هنا كَانَ من الضروري خطة، ومن المنطقي تصورًا أن نبدأ من الرسوم والأشكال باعتبارها الباب الأول الَّذي يُصادف القادمين إِلَى هذه المنازل.

والشكل الَّذي يتراءى أمام أعين الناظرين، والمظهر البارز الَّذي يخطف اللب سريعًا، وهو بدء لا يُمكن تجاهلـــه فِي أي فرع من فروع الدراسات العلمية الَّتي تقتضي بأن يبدأ الإنسان من الأمر الظاهر متنقلاً إِلَى ما وراءه.

ثم إِذَا انتهينا من المظاهر عمدنا إِلَى الملامح الهامة والأصيلة الَّتي تُضيء لنـــا الطريق بعد ما نترل إِلَى الرقائق والدقائق، ونقف مع النفـــوس الـــصافية أثنـــاء عروجها وتساميها، وأظهر تلك الملامح ما نشاهده فِي المنهج والمـــصطلحات إذ الوقوف عليهما بمثابة الركائز الأساسية الَّتي يلزم الاستناد عليها لمن أراد أن يدنو من النظرات والأذواق، أو يكتشف النفس فِي عمـــق شـــعورها ووجودهـــا، ومواجيدها، وهذا هو ما أملاه عليَّ تصوري، واستعملته كخطة ألتزمها فِي هذه الدراسة من القسم الثاني.

الباب الثالث

الرسم، والاسم، والتحول

obeikandl.com

obeikandl.com

طبيعة المحاولة

نقدم بين يدي الباحثين بعض النقاط الَّتي هي بمثابة المدخل لهذه الدراسة كمسألة الزي الَّذي يرتديه رجال الحركة الروحية وَالَّذي غلب على أبدان الصوفية وبدا رسمًا لَهم، وكاشتقاق الكلمة، ومتى ظهرت التسمية إِلَى غيرها من النقاط الضرورية الَّتي تسبق -عادة- البحث فِي موضوع التصوف مع علمنا بأنه لَم يَجف مداد العلماء عن الخوض فِي هذه المسائل خاصة مسألة الاشتقاق الَّتي لَم يقطع فيها إِلَى يومنا هذا برأي.

ولا أدعي أن محاولتي هنا ستبتر النزاع بترًا لتصل إِلَى جوهر المشكلة الفريدة، أو تضع أمام الدارسين مفتاح الحل الوحيد، وإنما هي ترجيح يقترب كثيرًا من حد القطع بصحة ما نذهب إليه، وتَهافت ما سواه مدعمين ذَلِكَ بالأدلة النقلية، واللغوية، والعقلية، والحوادث التاريخية.

ولا حرج فِي تكرار المحاولات واستمرارها فِي موضوع ذي مغاليق، أو نقطة لها وجهات متعددة طالما أن كل باحث يدلي فيها برأي جديد، أو يحاول أن يفك بعض المصاعب، أو يدنو من الصواب، أو يبتكر فِي طريقة العرض وكيفية العلاج، بالإضافة إِلَى أن القضايا العلمية سواء منها ما كَانَ نظريًّا أو تجريبيًّا لا تعرف الكلمة الأخيرة الَّتي توصد الباب فِي وجه دارسيها وطلابها، من أجل ذَلِكَ جعلنا الباب الثالث موضوع هذه الدراسة المتعلقة بالثياب، والاسم وزمن ظهوره، والسلاسل الجيدة الَّتي عبر عليها الزهد إِلَى التصوف.

الفصل الأول

الرسم

إنّما قدمت الحديث عن الزي لكونه أسبق من ذيوع الاسم وإطلاقه، ولاعتماد الاشتقاق عليه في إظهار كلمة صوفي، ومن الضروري لكي يتضح موضوع الثياب الّذي اختاره رجال القوم بكل اتجاهاتهم أن نَحوطه بشيء من التوسع وبتتبع لنصوص القرآن والسنة، ولأحوال الصحابة ومن تلاهم، ثم الصوفية، وعندما نقوم بهذه الجولة تتضح أمامنا وجهتان:

الأولى: تؤثر الغليظ والخشن.
والثانية: تحث على الرقيق والتمتع بزينة اللباس.

وللأولى أنصارها، وللثانية دعاتها وسنقف عند كل منهما، ثم نُحاول التعمق في أسرار التشريع وما هدف إليه رجال كل من النظرتين.

الوجهة الأولى

يرى أرباب هذه النظرة أن لبس الصوف هو مظهر التخشن والتقشف ويحتجون:

(أ) بما ورد في القرآن من إشارات إليه كقوله سبحانه: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[آل عمران: ١٢٤].

وقوله: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[آل عمران: ١٢٥]. أي: علمت خيولهم على النواصي والأذناب بالصوف وبه قَالَ ابن عباس ومجاهد بن جبير، وذكر البخاري أنه كانت سيما الملائكة يوم بدر، وورد في أحد وجوه تفسير

قولـــه تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[الأعراف: ٢١]. أنه لباس الصوف لكونه مما يتواضع به للـــه تعالى، وهو خير في هذا من غيره وإن حصلت التقوى مع لبس الرفيع، كما جعلـــه اللـــه في عداد النعم الّتي أنعم بها على عباده قَالَ جل شأنه: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝﴾[النحل: ٥]. وعلق أبو بكر بن العربي على هذه الآيات فقال: وهو شعار المتقين، ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين. وصرح القرطبي بأن الآيات دليل على لباس الصوف[١].

(ب) واتفقت كلمة الكثيرين كالسراج والكلاباذي والسهروردي والقرطبي على الاحتجاج بما ورد عن الأنبياء من ارتدائهم الصوف إذ حَدَّثَنَا الرسول قائلاً: «**كأني أنظرُ إِلَى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف**»[٢].

وأَخْبَرَنَا عليه الصلاة والسلام، أن موسى يوم أن كلم اللـــه كَانَ عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكمه من صوف.

وكَانَ عيسى يلبسُ الصوف والشعر، وروى عروة بن المغيرة، عن أبيه قَالَ: كنت مع النبي ﷺ فطلب ماء ليتوضأ فأفرغت عليه من الإداوة، فغـــسل وجهـــه وعليه جبة من صوف، ومن المعلوم أنه صلوات اللـــه عليه رفض ثوبًا مربعًا فيه أعلام، وطلب أنبجانية، وهي كساء سداه قطن ولحمته من صوف.

ولما جذبه الأعرابي طالبًا من مال اللـــه كَانَ النبي يلبس رداء نجرانيًّا غلـــيظ الحاشية، وروت السيدة عائشة، أن رسول اللـــه خرج عليهم ذات غداة، وعليه مرط مرح من شعر أسود، وأحيانًا كثيرة كَانَ يلبس شملتين بيضاويتين من صوف

---

(١) تفسير القرطبي، ١٤٣٩، ٢٦٢٠، ٣٦٨٦.

(٢) صحيح مسلم، ج١، ٤٠٦، باب الإسراء.

وتسميان حلة[1].

وأخرج البزار في مسنده عن جابر بن سليم قَالَ: ركبتُ قعودي ثم أتيت مكة فطلبتُ رسول الله فإذا هو جالس عليه برد من صوف[2]. وجاء في فتح الكبير أن النبي ﷺ قَالَ: «**عليكم بلباس الصوف تَجدوا حلاوة الإيمان في قلوبكم**»[3].

وقبض رسول الله في إزار غليظ مما يصنع باليمن وَفي كساء من الَّتي يسمونها الملبد، كما أقسمت على ذَلكَ السيدة عائشة لأبي بردة[4].

ويبدو أن النبي كَانَ يفضل الثياب المتواضع حيث يروي الترمذي والحاكم أنه قَالَ لأم المؤمنين عائشة: «**إن أردت اللحوق بي فإياك ومُجالسة الأغنياء ولا تزعي ثوبًا حَتَّى ترقعيه**»، وكسا الرسول عقبة السلمي خيشتين[5]، وروى أبو داود، وابن ماجة، من حديث أبي أمامة أن نبي الله قَالَ: «**البذاذة من الإيمان**»[6]. والبذاذة هي الدون من اللباس.

وهذه الأحاديث كما رأينا رواها البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم وجاء فيها ما يدل على تعمد النبي ﷺ للبس الصوف، وعلى فضل هذا الزي وأنه ثياب الصالحين والطالبين لرضوان الله ومغفرته، وفيها كما يقول الإمام النووي ما

---

(١) مسلم، ج١، ٥٦٢، ج٢، ١٩١، ج٢، ٩٤، ج٤، ٧٩٠.
(٢) القرطبي في التفسير، ٢٧٨١، نقلاً عن مسند البزار.
(٣) تحفة السفرة لابن عربي نقلاً عن فتح الكبير ج٢، ٢٤٣.
(٤) البخاري في صحيحه شرح القسطلاني، ج٤، ١٠١.
(٥) التاج، ج٣، ١٥٤.
(٦) عين العلم، ج٢، ٥٠.

يُشير صراحة إِلَى ما كَانَ عليه النبي من الزهادة فِي الدنيا والإعراض عن متاعها وملاذها وشهواتها وفاخر لباسها ونَحوه..، وفيها الندب للاقتداء برسول الله ﷺ فِي هذا وغيره[1].

وبها ما يكفي للرد على ابن جرير الطبري فِي تخطئة من لبس الشعر والصوف مع القدرة على لباس القطن والكتان؛ لأن الرسول صلوات الله عليه خلع الثوب الرقيق وطلب الغليظ، وكَانَ فِي جل أوقاته قادرًا على لبس القطن والكتان ومع ذَلِكَ تركهما ولبس الخشن.

وتُفيد الأحاديث بسندها الحسن أن النبي أذن صراحة فِي لبس الصوف، ونطق تضمينًا ولفظًا بفضله مما يدحض اتهام ابن الجوزي لأحاديث فضل لبس الصوف بالوضع والَّتِي لا يثبت منها شيء، وأنه قد اختلط الصحيح منها بالخطأ بحيث يصعب التمييز بينها بموازين علم الحديث حَتَّى على أهل هذا الفن[2].

ويلزم من اعترافه بثبوت ما روي فِي لبس الرسول للصوف إثبات الفضل إذ لولا فضله ما لبسه المعصوم صلوات الله عليه، كما تحمل هذه الأخبار المروية بأسلوبها وطرائقها وتنوعها ردًّا قويًّا على زعم ابن الجوزي والقسطلاني أن لبس الغليظ والصوف والخشن كَانَ اتفاقًا لا عن قصد.

فلا يعقل أن يكون خلع كساء فيه أعلام واستبداله بأنبجانية اتفاقًا، ويكون نصحه للسيدة عائشة بالمرقع وكساؤه لعقبة خيشتين عن غير قصد، ومن الخطأ على وجه العموم أن ننسب إِلَى النبي أفعالاً اتفاقية لا إرادية؛ لأن كل ما يصدر عنه إنّما هو بقصد التشريع، وكل حياته وأفعاله أعدت لتكون تشريعًا

---

(١) مسلم شرح النووي، ج٤، ٧٩٠.

(٢) تلبيس إبليس، ١٩٤.

للأمة يقتدى بها.

ولو صح ما قالـــه القسطلاني في إرشاد الساري إنه كيفما وجد لبس للبس الرسول الحرير لأنه وجده وأهدي إليه ثم رفض أن يلبسه وحرمه، وكثيرًا ما نزع أثوابًا أخرى شغلته عن الصلاة.

(ج) ومِمّا يزيد الأمر وضوحًا وبيانًا ما نرى من تفضيل كثير من الصحابة كأبي ذر الّذي كَانَ يلبس أخشن الثياب[1]. وكمصعب الّذي تمنطـــق بإهـــاب كبش، ووصف أبو هريرة وفضالة بعض الصحابة بأنّهم كانوا يخرون مـــن الجوع حَتَّى تحسبهم الأعراب مجانين، وكَانَ لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كَانَ يعرق في ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إِذَا أصابه الغيث[2].

وقيل هذا عن أهل الصفة بنوع خاص، وقَالَ الحسن البصري: قابلت سبعين بدريًّا لباسهم الصوف.

وتطبيقًا لروح ونص الأحاديث السابقة دعا عمر الناس عندما رأى ميـــولهم نَحو الرقيق والناعم قائلاً: اخشوشنوا، اخشوشنوا وإيّاكم وزي العجم كـــسرى وقيصر[3]. وقَالَ رافع بن خديج، عن بشر بن مروان وهو يَخطب علـــى منـــبر الكوفة أثناء ولايته عليها: انظروا إِلَى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفـــساق، وكَانَ عليه ثياب رقاق.

فقد اعتبر رافع الثوب الرقيق ثوب فسق، وعلق ابن عباس علـــى قولـــه

(١) النووي على مسلم، ج٣، ٢٠٢.
(٢) عوارف المعارف، ٦٤.
(٣) الغزالي، الإحياء، ج٤، ٢٠٢.

سبحانه: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣]. بأن المراد النهي عن لبس ما رق من الثياب، والحث على لبس الغليظ الذي هو الصوف غالبًا، وتدلنا تلك النصوص على أن الصحابة فرادى وجَماعات قادرين وعاجزين لبسوا الصوف والخشن حَتَّى صح للإمام النووي قوله فيه ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه من الزهد في الدنيا والتقلل منها، وإطراح فضولها، وعدم الاهتمام بفاخر اللباس ونَحوه[1].

(د) ولفضيلة لبس الصوف توارثه التابعون وتابعوهم من الزهاد، فلبسه أويس القرني، وسالِم بن عبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن المسيب، وجعفر الصادق، وعبد الله بن عون، ومالك بن دينار، ومحمد بن سيرين، ومطرف بن عبد الله، وفرقد السنجي، ومحمد بن واسع، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري، وعتبة بن الغلام، والأعمش، والشعبي، وسفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وشعبة بن الحجاج[2]، وغير هؤلاء من رجال السلف سواء كانوا من فصيلة الزهاد أهل النسك، أو من فصيلة الزهاد أهل العلم الظاهر، أو من فصيلة زهاد الساسة كجعفر المنصوري الذي كانت تُخالطه أبهة الملوك بزي النساك.

أي إن هذا الزي عرف للزهاد والنساك بصرف النظر عن سماتهم العلمية والاجتماعية قبل أن يصبح شعارًا للتصوف والصوفية، وبهذا اعترف المكي

---

(١) النووي على مسلم، ج٢، ٥٨٧.

(٢) انظر: طبقات الشعراني ج١، ٢٤، ٣٢، ٢٦، ٤٠، ٤٩، ووفيات الأعيان، ج٢، ٩٤، ١١٧، ٤٩، وتاريخ بغداد، ج٩، ٦، ج١٠، ٩٤، وكشف المحجوب ج١، ٢٤٢، وطبقات ابن سعد، ج٦، ١٧٦، ١٧٧، ج٧، ١٣٨، والحلية، ج٤، ٢٠٠، ورياض النفوس، ج١، ٧٠، عند الحديث عن تراجم من ذكرنا.

والسهروردي، وإن كنا نأخذ على المكي أنه عمم الحكم باللبس على السلف مع أنه على جهة الغلبة لا العموم كما سنبين.

(هـ) وإذَا ما وصلنا إلَى الصوفية وجدنا بشر بن الحارث الحافي (٢٢٦هـ) يلبس فروة رثة المنظر، وأحمد بن إبراهيم يشتهر بالمسوحي هو وعلي بن حسن للبسهما المسوح، والحسين بن منصور الحلاج (٣٠٩هـ) يتنقل بين زي العلماء وبين المسوح والخرق.

وقدم محمد بن أحمد الشيرازي (٣٥٣هـ) بغداد، وأقام بها مدة يتكلم على الناس بالوعظ على طريقة الزهد ويلبس المرقعة، وارتدى سيدي عبد القادر الجيلاني (٥٦١هـ) جبة من صوف، وأطلق سيدي أحمد الرفاعي (٥٧٠ هـ)، على هذا الثياب حلية الأولياء وزي العارفين، وأجله سيدي إبراهيم الدسوقي (٦٧٦هـ) بشروطه اللائقة به ظاهرًا وباطنًا[1]. فأحسن ما تلبس هذه الطائفة الصوف[2]

(و) وإنّما فضل هذا الزي على غيره لأنه علامة التواضع، وشارة الخمول، والذبول والانكسار كما يقول عمر في رثاء النبي ﷺ، فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا، وواكلتنا، ولبست الصوف وركبت الحمار، وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض، ولعقت أصابعك تواضعًا منك[3].

أي: إنّما فعلت ما فعلت لا عجزًا ولا قصورًا عن التنعم ولبس الجيد الرقيق،

---

(١) اللمع، ٢٤٨، وتاريخ بغداد، ج٧، ٧١، ج١، ٣٥٩، ج٤، ١٢، ج٨، ١١٢، وطبقات الشعراني، ج١، ١٠٨، ١٢١.

(٢) الغزالي، منهاج العارفين، ٩٥-٩٦.

(٣) الغزالي، الإحياء، ج١، ٣٢٠.

ولكن حبًّا فِي التواضع وإيثارًا للزهادة، واقتصارًا على ما ستر العورة، و لم يشغل عن الآخرة ونعيمها.

وثياب الصوف هو الزي الَّذي يتناسب مع التقلل والتخشن والافتقار، وقد عرفه العرب لتلك الحالة سواء لجأ إليها صاحبها بإرادة واختيار ابتغاء مرضاة الله كما يفعل الزهاد والصوفية، أم باختيار بغية جمع المال كما لبسه أبو عمرو الخفاف لهذا الغرض وللاكتناز[1]، ولذا عده الثعالبي من الكنايات لدلالته على لازم له، أم ألجأته إِلَى لبسه صروف الدهر وتقلباته كما قَالَ أبو تمام:

كانوا بــرود زمــانهم فتــصدعوا فكأنما لــبس الزمــان الــصوف[2]

فجعل لبس الصوف حال الضعف فِي مقابل لبس البرود وما رق حال القوة.

وبجانب هذه العلل فثوب الصوف قليل الثمن يرخص ويسهل شراؤه على المتقللين والمتجردين، ويتحمل أسفار السائحين من الزهاد والصوفية، فلا عجب مع هذه الدواعي أن يفصح شاب أمام بشر الحافي قائلاً: الحمد لله الَّذي جعلنا ممن يعرف به، ويكرم لـه والله لنظهرن هذا الثوب حَتَّى يكون الدين كله لله، فقال لـه بشر: أحسنت يا غلام مثلك من يلبس المرقعة[3].

فحمد الله على لبسه، والمعرفة به، وقسم الشاب على إظهاره حَتَّى يظهر الله أمر الدين إعلامًا لا عن ظاهر اللبسة ولكن عن باطنها وأسرارها، وإفصاحًا عما فِي القلب، وعما انطوت عليه النفس من صفو ومُجاهدة، وعما أكنت من تواضع وورع وزهد وعفة ورضا وغير ذَلِكَ من الفضائل الإسلامية الَّتِي كَانَ

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ٢٥١.
(٢) التصوف الإسلامي، لزكي مبارك، ٥٦.
(٣) اللمع، ٢٤٨.

الثياب علامة على صدق المخلصين ممن تزيوا به، والجهاد والإصرار على إبراز هذا الثوب ليس منصبًّا على خيوطه البادية إنّما على فضائله المستكنة تحت الأديم الّذي يحمل هذا الثوب.

(ز) ومن كل ما ورد في القرآن والحديث وَفي أقوال الصحابة يتضح أن الزهاد والصوفية قلدوا نبيهم صلوات الله عليه في اللبس، و لم يصدروا في زيهم عن تأثير مسيحي أو رهباني، وأنّهم اقتدوا بالصحابة من المسلمين لا بالتقاليد المسيحية خلافًا لما ذهب إليه ماسنيون الّذي ادّعى أن هذا الرأي نصراني دخيل[1]. ووافقه على ذَلكَ فيليب حَتى ونولدكه[2].

وسايرهم في هذا الاتجاه الدكتور زكي مبارك من الباحثين الإسلاميين مبينًا أن لبس المسوح كَانَ معروفًا بين الجاهليين، وقد لبسه أمية بن أبي الصلت تعبدًا شأنه في ذَلكَ شأن النصراني الّذي يلبسه حين يتنسك، والنتيجة الّتي خرج بها حينًا أن هذا الزي تقليد للرهبان النصارى[3].

ولعل الّذي دفع الغربيين والشرقيين إلَى هذا الزعم هو ما جاء على لسان حماد بن أبي سليمان حين قدم البصرة فجاءه فرقد السنجي وعليه ثوب من صوف فقال له حماد: ضع عنك نصرانيتك هذه[4].

وقَالَ أبو العالية المسمى برفيع المتوفى (٩٠هـ) لأبي أمية الّذي كَانَ يرتدي

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، ج٩.

(٢) فيليب حتى: الإسلام منهج حياة، ١٢٣، نيكلسون: الصوفية في الإسلام ترجمة شربية، ٣-٤.

(٣) زكي مبارك، التصوف الإسلامي، ٦٣- ٦٥.

(٤) تلبيس إبليس، ١٩٥.

هذا الثوب: هذا زي الرهبان إن المسلمين إذَا تزاوروا تَجملوا[1].

ولكننا استنادًا إلَى ما سبق من نصوص في الفقرات الست الأُوَل نقر بأن الصوف نسيج مشترك للبشرية كلها، يلبسه من يشاء من أي دين أو أية نحلة، والرسول حين لبسه إنما استخدم نعمة ساقها الله في الكتاب الَّذي أنزله عليه، ولما رأى في الصوف من تناسب مع حال التقشف والتقلل، وليس لمدع أن يزعم أن الرسول قلد أحدًا في ذَلكَ.

وعندما يرتديه الزهاد والصوفية فهم على وجه يقيني يتبعون رسول الإسلام لإعلانهم المستمر أن نبيهم أحب إليهم في الاقتداء كما جاء على لسان محمد بن سيرين[2]. وكَانَ في مقاماته وأحواله ومذاقاته الإنسان الكامل الَّذي حاولوا التشبه به، والسير على سننه رجاء أن ينالوا بعض ما نال.

فمن العبث بعد كل ما سبق أن يتجاهل المستشرقون فوق هذه النصوص الكثيرة لينسبوا الزي إلَى المسيحية، كما أن الدكتور زكي مبارك قد تناقض أشد التناقض مع الشواهد السابقة ومع نفسه، ذَلكَ عندما قرر النتيجة سالفة الذكر، وعلى كل فإن الرجل قد أراحنا من الرد عليه حينما نقض تلك النتيجة بقوله بعدها: (أقول هذا ولا أجزم بأن في لبس الصوف رجعة إلَى التقاليد المسيحية ولكن القارئ عرف أن النبي ﷺ كَانَ يستحب لبس الصوف تواضعًا)[3]. وبذا عاد إلَى رأينا، أو لَم يستطع الوقوف على حكم معين، أو لَم يستبن الوجهة الصحيحة.

---

(١) الحلية، ج٢، ٢١٧.

(٢) محاضرات الأصفهاني ج٤، ١٢٢، نقلاً عن التصوف الإسلامي لزكي مبارك.

(٣) التصوف الإسلامي، ٦٣- ٦٥.

وأما حماد بن أبي سليمان وأبو العالية فيمكن أن نحمل عبارتهما على أنهما تمثلان وجهة النظر الثانية الَّتي ترى أنه ينبغي على المسلم أن يرتدي الثياب الحسن إظهارًا لنعمة الله وهي الَّتِي سنتحدث عنها الآن.

الوجهة الثانية

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه قد امتنع بعض الزهاد الصوفية عن استعمال الصوف، ولبسوا الخز أو الكتان وتجملوا بفاخر الثياب كبكر بن عبد الله المزني الزاهد التابعي، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيد الله بن عمر الَّذي كَانَ يتكئ عليه أبوه ويحس بنعومة ثوبه فلا ينكر عليه، وخارجة بن زيد ومحمد بن سيرين، ولبس الإمام أبو حنيفة جيد الثياب، وارتدى الإمام مالك اللباس العدنية الجياد، وأحب الإمام أحمد الثياب البيضاء، كما أحبها تميم الداري وبشر بن الحارث.

ولبس أبو سليمان الداراني الصوفي (٢١٥هـ) قميصًا أبيض، واكتسى أبو حفص عمر بن سالم النيسابوري (٢٧٠هـ) قميصًا من خز وثيابًا فاخرة، وكَانَ له بيت فرشه بالرمل، وأعرض أبو الحسن الشاذلي، والمرسي أبو العباس عن الصوف والمرقعات[1].

وقد استدل هؤلاء بقوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ

(١) انظر في هذه الحلية: ج٢، ٢٢٧، ١٨٥، ج٣، ٤٧، وطبقات ابن سعد، ج٥، ١٣٤، ١٣٩، ١٩٤، واللمع ٢٤٩، ٢٤٨، طبقات الشعراني ج١، ٤٥، ج٢، ١٦، وتلبيس إبليس ١٩٩، والقرطبي ٢٦٣٢- ٢٦٣٣، ابن كثير ج٤، ٥١٠، والنسفي ج٢، ٥٠-٥١، ولطائف الإشارات ج٢، ٢٢٢-٢٢٤.

حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾[الأعراف: ٣٢-٣٣].

وقَالَ جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[النحل: ٨١].

وفهم كل من الطبري، وأبي الفرج الجذري، والقرطبي، وابن كثير، والنسفي[1] أن هذه الآيات تبيح التنعم بجميع أنواع اللباس بشرط الاقتصاد ونقاء القلب من الكبر والرياء، وتأمر الإنسان أن يظهر نعم الله عليه حيث يُحب الله ذَلكَ من عبده، ولا يكون في هذا الإظهار أو في تجويد الثياب هوى النفس حَتَّى تذم عليه؛ لأنه ليس كل ما تهواه النفس يذم، ولا كل ما يتزين به للناس يكره، وإنّما يذم إذَا كَانَ الشرع قد نَهى عنه، أما إذَا كَانَ قد أباحه فلا يلام فاعله.

وتحدثنا آيات الأعراف والنحل أن الله سبحانه أباح التزين بثياب القطن والكتان والصوف، وجعل لَهُم ما يقيهم من قسوة الطبيعة في حرها وبردها ونَهارها وليلها، فلا حرج إذن على الإنسان حينما يستخدم ما أنعم الله به عليه، ولابد من إضافة الزينة الباطنة مع الزينة الظاهرة عند القشيري.

وكذلك استدل أنصار هذا الرأي بما روي عن رسول الله أنه لبس بردين أخضرين، وارتدى حلة حمراء، وأهدت إليه بردة فلما لبسها جسها أحد الصحابة ثم طلبها منه فلفها له الرسول صلوات الله عليه وأرسلها له[2]، وبجانب

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) التاج، ج٣، ١٥١-١٥٤-١٥٥. عن أصحاب السنن وعن البخاري والنسائي، وانظر البخاري، ج٧، ٢١٤.

لبسه حث رجلاً قشف الهيئة صاحب مال على تحسين هيئته قائلاً له: «**فإذا أتاك الله مالاً فلير عليك**». وقَالَ لآخر يرتدي ثيابًا غير نظيفة: «**أما كَانَ يَجد هذا ما يغسل به ثوبه**». وسأله صحابي عن حسن الثياب وهل هو من الكبر فقال: «**إن الله جميل يُحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[1].

وأحسن ما يكون التجمل فِي الجمع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزارة الإخوان، وعند دخول المساجد والوقوف بين يدي الله فِي الصلاة.

ودعونا الآن نتبين الحقيقة من وراء هاتين النظرتين تلكم الحقيقة الَّتِي تتراءى أمام عيوننا وبصائرنا إِذَا ما درسنا المسألة فِي سياق العلم بنظرة الإسلام الشاملة الَّتِي تشرع للبصر عمومًا، وفيهم الفقير الصادق الَّذِي يناسب حاله مع التقلل والتخشن، والثري المخلص الَّذِي يستطيع التزين بشروطه من غير كبر ولا إسراف.

كما أن فِي كل من الفريقين مدعين ومرائين، فإذا لبس الرسول صلوات الله عليه الصوف والغليظ وحث عليه فليقتدى به الفقراء الصادقون، وإِذَا حث على التزين والتجميل فلكي يفسح المجال أمام الأثرياء، والأقوياء الَّذِيْنَ يقدرون على ضبط نفوسهم ومُجاهدتِها مع جيد الثياب وحسنه.

ومن المعلوم أن النبي دعا إِلَى النظافة ولو مع الثوب المرقع، ومن أجلها سمح لصحابي عانى من القمل أن يغتسل وهو مُحرم، كما أنه حارب الادعاء والربا على أي شكل من أشكاله ومع أي من الفقير أو الغنى، وإِذَا نَهى عن قشف الثوب والهيئة فللمبالغة فِي عدم النظافة، أو بدا للنبي من حال الرجل رث الهيئة أنه فعل ذلك بُخلاً واكتنازًا لا زهدًا وتواضعًا، أو أنه وصل فِي رثاثته إِلَى حال لا

(١) تلبيس إبليس، ٢٠٢، انفرد به مسلم.

يليق بمسلم، ولا يتفق مع الطهارة الّتي يحبها الله ويُحب أربابها.

وإذا زهد في الثوب، ورغب في التقلل، ودعا إلى البذاذة الّتي لا تصل بالإنسان إلى حد التقزز والنفور منه فليقطع على المرائين والمباهين الطريق الّذي يودي بصفاء القلب والنفس.

وبهذه اللمحة الإجمالية يبدو الإسلام شاملاً يراعي الجوانب البشرية على اختلاف ميولها الخيرة، ويحرص على تلبية النزعات البارة، أما الشهوات الجانحة فموقفه منها موقف المعالج والمداوي والحريص على الشفاء لنفوس الإنسانية عامة.

وَالّذيْنَ يقتصرون على وجهة نظر واحدة من الخشن أو الناعم قد قصروا عن فهم هدف الإسلام الّذي شرع تشريعًا فسيحًا وعامل كل نفس حسبما انطوت عليه واتجهت نَحوه، وتلك دراسة إجمالية لوجهتي النظر في الثياب أما الوقفات التفصيلية الّتي نَخرج منها بالتوفيق بين النظرتين فيمكن أن نوضحها فيما يلي:

(أ) إنه بالنظر في آية الأعراف السابقة نَجد أنها نزلت قطعًا لعادة القبائل العربية الّتي كانت تطوف بالبيت عريانة إلا الأحمس وهم قريش، ثم قطع النظر عن السبب الخاص الّذي نزلت الآية فيه، وعممت في كل المساجد وَفي الصلاة[1].

ولذا قَالَ الفخر الرازي: فوجب حمل هذه الزينة على ستر العورة[2]. وقَالَ: وَأَجْمَعَ المفسرون على أن المراد بالزينة ههنا لبس الثوب الّذي يستر العورة.

---

(١) تفسير القرطبي، ٢٦٢٥.

(٢) تفسير الفخر الرازي، ج٤، ١٩٨-٢٠٠، والقرطبي ٢٦٢٥، وأبي السعود هامش الفخر، ج٤، ٣٥-٣٦.

وبالتالي فالأمر هنا للوجوب لا للإباحة، وبنحوه ذهب القرطبي وأبو السعود في تفسيرهما.

ويعتبر هذا الفهم قصرًا للزينة على ما ستر العورة لا ما تجمل به العبد في ثوبه، وهو لا يفيد الحث على الرقيق فحسب لأن سترة العورة شامل لما غلظ ورق، وكذلك مال الفخر الرازي إلى أن الزينة بمعنى الجيد من الثياب لا تخلص للمؤمن إلا في الآخرة أما في الدنيا فإنها مكدرة مشوبة.

وبجانب هذا فإن القرطبي قد اشترط لتنويع الثياب المستفاد من آيات سورة النحل أن يكون العبد قادرًا على شرائها واستعمالها، وبناء على هذا المفهوم فإن الأمر في آيات الأعراف شامل للرقيق والغليظ ما دام كل منهما يستر العورة، ولا يَخلو الرقيق من كدر، وقد لا يستطيعه جُلُّ البشر، ومن هنا فإن الغليظ والخشن في العصور السالفة كَانَ أيسر شراءً، وأقل ثمنًا، وأستر للعورة، وتطيقه الأكثرية من الآدميين وتقل الشهرة والتفاخر معه كما يتوقى به من إثارة الهوى والغرور في نفس الإنسان.

فلا عجب أن يثبت كثير من العلماء أن لبس الصوف كَانَ غالبًا على رجال السلف، والحكم بالغلبة كَانَ في التفضيل، بالإضافة إلى أن الأكثرية الَّتي عارضت لبس الصوف من رجال الظاهر والأقلية الَّتي امتنعت عن لبسه من أرباب الباطن كانوا قادرين ذوي ملك واستطاعة، أما الجمهرة من رجال الصوفية الَّذين تخشنوا ولبسوا الصوف أو المرقعات فكانوا في الغالب من المتجردين أو السائحين، وممن يتناسب حالهم مع لبس الصوف لرخصه وتحمله وستره.

(ب) هذه واحدة بالنظر إلى المفهوم في الآيات الَّتي حملت الدعوة إلى لبس الْحَسَن الرقيق، ونأتي إلى وقفة مع غايات اللبس ومراميه الباطنة فنرى أن

المسلمين عامة والمشتغلين بالحياة الروحية خاصة قد اعتدوا في اللبس بالصدق، وصفاء النفس، وتوجه القلب إلى الله، والخلو من الشهوات الجارفة، وعندما يتحقق هذا في نفوس القاصدين فلا لوم على لبس ما طالما أنه يَخضع للحدود الشرعية المقررة.

ولتوافر هذه الشروط لدى الصحابة وَفي عمق نفوسهم كانوا كما قَالَ بكر بن عبد الله: لا يطعن الَّذِيْنَ يلبسون على الَّذِيْنَ لا يلبسون، وَالَّذِيْنَ لا يلبسون لا يطعنون على الَّذِيْنَ يلبسون[1]. أي: لا يعيب صاحب الخز على صاحب الصوف، ولا صاحب الصوف يعيب على صاحب الخز[2]، على حد تفسير مالك بن دينار.

وقد عبر سعيد بن المسيب عن تلك الغاية في عبارة وجيزة إذ قَالَ: أصلح قلبك والبس ما شئت[3]. وهذه العبارة مع ما سبقها يفتح علينا باب المناقشة الجادة في أصل هذا الموضوع، ويثير في أذهاننا المغزى الرئيسي الَّذي بنى عليه رجال الطريق نظرهم إلى اللبس سواء ما رق أو ما خشن، خصوصًا إذا ما علمنا أن تلك المشكلة ما كَانَ لها أن تظهر لو سار المسلمون على ما كَانَ عليه الصحابة، ومن سلك مسلكهم أو شرب مشربهم من التابعين وتابعيهم.

ولكن لما وجدت البدع وحدث التغير في القلوب، وتستر ضعاف الدين وراء لبس الزهاد ومن بعدهم الصوفية اندفع رجال الحركة الروحية يُحاربون المدعين بين صفوفهم من ناحية ويركزون على بواطن وقلوب السالكين من ناحية

---

(١) الحلية، ج٢، ٢٢٧.
(٢) طبقات الشعراني، ج١، ٣٢.
(٣) الحلية، ج٢، ١٧٣.

أخرى، ويعلنون على الملأ أنّهم ليسوا طلاب رسم ولا دعاة زي إنّما هم قصاد حقيقة، وباحثون عن معانٍ لا قوالب، وعلى المريدين أن يُدركوا أن العبرة ليست بالشارة، ولا بالحرقة ولا بالخشونة، وإنّما القصد هو تصفية النفس، وجلاء القلب حَتَّى تزول عن عين البصيرة الغشاوة لترى أنوار الحق بالمكاشفة.

كما أنّها من باب أولى ليست بالنعومة أو الرقة وإنّما المطلوب رقة القلب وشفافية الروح الّتي تواصل العروج إِلَى حظائر القدوس، وباختصار أرادوا أن يعودوا إِلَى حالة الصفاء وعدم اللوم فِي اللبس كما كَانَ عليه المسلمون فِي عصر الصحابة.

(ج) واقتضتهم تلك الغاية أن يوجهوا اللوم الشديد على كل لون من ألوان الثياب ما دام صاحبه لا يَحترم صفاء الباطن، ولا يتوجه بكليته إِلَى تجلية نفسه، أو يُشم مما يرتديه تصنعًا أو ادعاء حَتَّى ولو كَانَ الثوب هو اللباس الأبيض الّذي ورد أن النبي ﷺ فضله على ألوان الثياب عامة[1].

ومن أقدم النصوص الّتي هاجمت الثوب الأبيض قول أبي عبيدة بن الجراح: ألا رب مبيض لثيابه مدنس لدينه، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين[2].

ولما كانت دواعي الرياء فِي الدين مع لبس الرقيق أقل منها مع لبس الصوف نظرًا لارتباط زي الصوف بحالة النسك، وإقبال الأكثرية عليه، وبارتدائه يحصل للعبد الشهرة بالصلاح، ويمكن أن يثق الناس فيه وبالتالي يَحصل بعض أرباب المطامع على منافع لَهُم من جرائه لذا كَانَ الهجوم على من ارتداه للتستر أشد وأقوى، وعلاوة على الهجوم فإن الادعاء جعل رجال الطريق يعدلون عن لبس

(١) البخاري ومسلم فِي باب الفضائل وأصحاب السنن، التاج، ج٣، ١٥٤- ١٥٥.
(٢) طبقات الشعراني، ج١، ١٩.

الصوف إلَى غيره كالحسن البصري ومالك بن دينار، وابن عون، وسفيان الثوري، وابن أدهم، والشاهد على ذَلكَ أن أحد المدعين قدم على البصري وهو يرتدي جبة صوف وعمامة ورداء من صوف فلما جلس عنده جعل موضع بصره في الأرض لا يرفعه، وكأن الحسن خال فيه العجب فقال له: ها إن قومًا جعلوا كبرهم في صدورهم شنعوا والله دينهم بهذا الصوف[1]. وكانت تلك الحادثة بلا ريب مثار فكر الحسن وانتباهه إلَى شناعة مثل هذا السلوك، وإلى مقدار ما يلحق الطريق من إهانة بسبب هؤلاء، ولذا لَم يدخر جهدًا في حربهم معلنًا أنهم أكنوا الكبر في قلوبهم، وأظهروا التواضع في لباسهم، والله لأحدهم أشد عجبًا بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه[2].

وقَالَ لفرقد السبخي مع صدق هذا الزاهد وإخلاصه: يا فريقد يا بن أم فريقد إن البر ليس في هذا الكساء، وإنّما البر ما وقر في الصدر وصدقه العمل[3]. أي إن الهجوم تجاوز المدعين إلَى الصادقين درءًا للشبه، وقطعًا للمفاسد، وسدًّا لأبواب الرياء.

وتوالى الهجوم الشديد بعد الحسن البصري على المظهر والرسم، واهتموا بالقلب مثلما جاء على لسان أبي الحسن بن يسار لأبي محمد ابن أخي معروف الكرخي، قَالَ له أبو الحسن: يا أبا محمد صَوِّف قلبك، أو جسمك والبس القوهى على القوهى[4].

وحكم يَحْيَى بن معين الرازي(٢٥٨هـ) بأن لبسه مع بقاء النفس بشهواتها

---

(١) تلبيس إبليس، ١٩٥.
(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٢، ٣٧٢.
(٣) تفسير القرطبي، ٢٦٣٢.
(٤) نفس المرجع السابق.

جهالة[1]. وإذَا كَانَ ضوء الفقير فِي ثوبه فلا يُرجى خيره كما هو عند أبي حفص الحداد (٢٧٠هـ)، ويتحسر أبو الحسين النوري (٢٩٥هـ) فيقول: كانت المرقعات غطاء على الدر فصارت جيفًا على المزابل[2]. وما زينوا الظواهر إلا بعد أن خربوا البواطن على حد تعبير محمد بن عبد الخالق من صوفية القرن الرابع الهجري.

ورأى الشبلي جماعة من أصحابه بالمسجد عليهم المرقعات والفوط فأنشأ يقول:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائه[3]

والمهم عند القطب الرفاعي والقطب الدسوقي أن يسلك صاحب الصوف أو المرقعة بهذا الزي مسالك المقربين، وأن يخلص فِي جوانيته، وَفِي عمله كله ويحترم بحزم إيمانه لأن القوم إنما عملهم جواني[4]، ونستنتج بعد كل هذا أن حب الظهور برسم وسمت الصالحين مع فساد النوايا ظهر بعد مدة من الزمن مضت على انتقال رسول الله ﷺ ظل فيها المخلصون يرتدون بأكثرية ثياب الصوف وبأقلية غيره، وحالهم الزهد والتواضع والصدق والإخلاص، ثم حدث الفساد، وأعقبه الهجوم على الظاهر من الزي بغية إصلاح القلوب.

و لم يكن الهجوم على لبس الصوف فِي حد ذاته كزي بل على سوء استخدامه وقبح الغاية الَّتِي يلبسه من أجلها المراءون، وهذا لا يضير من لبسه بصدق وإخلاص، كما أن الحملة الشديدة والمركزة على المنتسبين والمدعين

(١) طبقات ابن الشعراني، ج١، ٧٠.
(٢) تلبيس إبليس، ١٨٦.
(٣) تفسير القرطبي ٢٦٣٢.
(٤) طبقات الشعراني، ج١، ١٢١، ١٥٢.

والمتسترين وراء الزي تدلنا على أنه اشتهر زي للنساك وإلا ما تستر بـه أهـل الرياء، ومن الجدير بالذكر هنا أن أبا الفرج الجوزي في نقده اللاذع لمرتدي الصوف كَانَ يسلك المسلك الصوفي الَّذي ينتقد المرائين لا المخلصين، ويوجه تعنيفه للمتشبهين الَّذِيْنَ لا يَخفى تصنعهم إلا على كل غبي[1].

أما المتقدمون والصادقون فقد حسنوا الصورة والمعنى عنده، ويتفق مع كل من أبي سليمان الداراني (٢١٥هـ) وأبي القاسم الجنيد (٢٩٧هـ)، ومحمد بن علي الكتاني (٣٢٢هـ) على ضرورة الموازنة والتوافق بين ما في داخل العبد وما يرتديه على ظاهره، فلا تغلب شهوته في قوتها ما على بدنه من ثوب ولا يرق لبسه عن قلبه[2].

وإلى هذا الهجوم على أثواب الشهرة جاءت الأحاديث تؤيده فيقول الرسول ﷺ: «**من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوبًا مثله ثم تلهب فيه النار**»، وَفي رواية: «**من لبس ثوب شهرة أعرض الله عنه حَتَّى يضعه**»، أو «**ألبسه الله ثوب المذلة يوم القيامة**»، سواء كَانَ الثوب رقيقًا أو غليظًا كما صرح به الرسول في رواية أبي هريرة وزيد بن ثابت حين نَهى عن الشهرتين قيل يا رسول الله وما الشهرتان؟ قَالَ: «**رقة الثياب وغلظها ولينها وخشونتها وطولها وقصرها، ولكن سداد بين ذَلكَ واقتصاد**»[3].

وتطبيقًا لما قلناه من ارتداء الغالبية للصوف عند الصدق وهجومهم عليه عند الشهرة ولما سمعناه من أحاديث رسول الله في لبسه وَفي ذمه عند الشهرة نرى

---

(١) تلبيس إبليس، ١٨٩.

(٢) ارجع إلى طبقات الشعراني، ج١، ٦٨، وعين العلم وزين الحلم، ٥١، وتلبيس إبليس ١٩٦- ١٩٨.

(٣) انظر: التاج، ج٣، ١٥٤، عن رواية أبي داود والنسائي، وتلبيس إبليس ١٩٢-١٩٣.

أن الصوفية تابعوا نصوص الإسلام لفظًا وروحًا وطبقوها تطبيقًا واعيًا.

(د) وبعد كل ما قيل في فضله وأنه كَانَ زي غالبية السلف، وأن الهجوم قد انصب على المرائين فليس هناك ما يمنع من أن يصبح هذا الزي متعارفًا عليه بين غالبية العباد والنساك والزهاد، ثم يصير زيًّا اصطلاحيًّا عند جَميع الصوفية وإن ارتداه معظمهم فقط، خاصة إِذَا تأكدنا أنه كَانَ لكل جماعة وهيئة وقوم زي معين.

فالكاهن مثلاً لا يلبس المصبغ، والعراف لا يدع تذييل قميصه وسحب ردائه والحكم لا يفارق الوبر وللحرائر زي وللملوك زي ولذوات الرايات زي، وكَانَ فرسان العرب في المناسبات والأسواق يتقنعون كعادة لَهم، وقد يتخذ الواحد منهم علامة تميزه في حادثة بعينها كما اتخذ حمزة في بدر ريشة نعامة سوداء وتعمم الزبير بعمامة صفراء، وكَانَ مصعب يتعمم العقداء، ولكل من الخلفاء والفقهاء والبالغين والأعرابي والرومي والنصراني عمامة تَخصه وتتميز عن عمامة غيره[1].

واتخذت الدولة الأموية زي الحرير شارة لها[2]، كما اتخذت الدولة العباسية لبس السواد زيًّا خاصًّا بها[3]، إِلَى أن يقول محمد بن سعد بن أبي وقاص:

فأبد سيماك يعرفون كما يبدون سيماهم فتعرف[4]

ويقول الجاحظ: لكل قوم زي فللقضاة زي، ولأصحاب القضاة زي،

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ٥٥، ٥٧، ٦٤، ٦٥، ٦٧.
(٢) مروج الذهب، ج٢، ٦٠٩-٦١١.
(٣) تاريخ بغداد، ج١٠، ١٥٥.
(٤) البيان والتبيين.

وللشرطي زي، وللكتاب زي، ولكتاب الجند زي[1].

وللصوفي كذلك، فلا عجب والحالة هذه أن يتميز الزهاد ثم الصوفية بـــزي خاص بهم كما قَالَ ابن خلدون وهم: فِي الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليـــه من مُخالفة الناس فِي لبس فاخر الثياب[2]. وقوله: (فِي الغالب) ينم عن الدقـــة وحسن التحري، وإطلاق ما غلب على المجموع ذائع ومعروف.

(١) نفس المرجع السابق.
(٢) ابن خلدون، المقدمة، ٣٩٨.

obeikandl.com